مقاربة سميائية

لــ" بابا نُويلْ " المغربي

الحسن بواجلابن

هذه الدراسة حلقة من حلقات مشروع سميائي بدأته في بداية التسعينات بإنجاز مقاربة للنص الحكائي "مداس الطنبوري "(1) مع وجود خيط ناظم يجمع رِبْقَةَ تلك المقاربات، وهو إعادة الاعتبار للخطابات المهمّشة دراسة وتحليلا، وتعرّف كيفية تمفصل تلك النصوص لإنتاج معناها. وستأخذ هذه الدراسة على عاتقها معالجة النقط الآتية: 1-مهاد نظري منهجي، 2-الوصف، 3-العلامات غير اللغوية ودلالاتها، 4-خصائص النظام السميائي، 5-الازدواجية ومِحَكّ المرجع.

1- مهاد نظري منهجي

يتوجّب على النظرية السميائية أن تقدّم نفسها كنظرية في الدلالة. فالسميائيات نظرية في المعنى، وهكذا ينبغي أن تتصوّرها. وتستهدف بفضل نموذج محكم البناء توضيح الشروط الناجعة للإمساك بالنص، أي لاكتشاف إوالية اشتغاله الداخلي. ومن أهداف السميائيات أيضا توضيح إنتاج المعنى، واستجلاء ما تحت المعنى، يتعلق الأمر بالبناء الدلالي.

إن التحليل السميائي، بما هو نظرية في المعنى، لا يبالي بمعنى لفظة، أو بالفكرة الجوهرية أو المعنى الإجمالي؛ وإنما يتموضع وراء الكلمات لاستخلاص العلاقات التي تنتظم فيها. وفي هذا تأسيس لنحو النص(2). وسنستعين بجهود غريماس (3) في مجال السميائيات السردية.

2- وصف علامتي لابد منه:

" بابا نُويلْ " المغربي ! ؟ ؟ ؟ ! من أين أتى؟ ومن هو؟ وماذا يريد؟ وكيف يعبر عن نفسه وذاته وهويته؟ وماذا يخفي؟ يقف "بابا نُويلْ " المغربي في أفخم الشوارع، يستقبل الناس بضحكات، وحفاوة، وتحيات متتالية؛ ليسعدوا برفقته في نهاية السنة الميلادية، ويأخذوا صورا فوتوغرافية بجانبه. يقف هو وأمثاله متناثرين، تميّزهم أقنعتهم وبرانسهم الحمراء، ولِحاهم القطنية.

إن بابا نويل المغربي نصّ؛ لأنه حقل من العلامات، ولعل كونه كذلك هو ما أغرانا بمقاربته. لِنَقُمْ إذن بعملية مسح لوصف مستوياته، والوقوف على كيفية انبنائه وتبلوره. إنه نصّ، باعتبار المفهوم السيميولوجي، مادام شيئا نراه، نتساءل معه، ومادام يَكْتَنِزُ لنفسه ألوانا معينة وشكلا محددا. ولقد قصدتُ بابا نويل لعلني أحصل، وبشكل إجرائي، على منهجية تناسب همّ قراءة بعض الظواهر الموسمية، وهو ما يستلزم الوقوف عند بعض العلامات.

بابا نويل نص يتمفصل من أجل إنتاج معناه؛ أي ليعبّر عن نفسه، وهويّته، وتطلّعاته. يمكن إذن أن نقسّم بابا نويل إلى عناصره الأساس، أقصد دلالة التكوينات: البرنس وما يحمله بدوره من دلالات كدلالة الألوان، والقناع وما يختزنه من دلالات مرجعية. هذا بالإضافة إلى حركات بابا نويل، وسلوكاته المنجزة في الزمان والمكان، وإيقاع السلوك. تعد هذه العناصر مجتمعة علامات غير لغوية دالة. وهي التي منحت بابا نويل هويّته الجديدة والمؤقّتة، كما منحته اختلافه عن الجميع.

إنها علامات غير لغوية تقدّم دورا أساسا في عمل بابا نويل، فالعلامة ركن من أركان التواصل. وإلى جانب هذا العمل التواصلي، وبموازاة هذا النظام العلامتي غير اللغوي، يَنْوي نظام لغوي يتمثل في طبيعة حديث بابا نويل المُنجز بشكل شفهي، مما يستدعي حضور بلاغة الخطاب الشفهي. وسنهتم بعلامات النظام غير اللغوي ومنها الأشكال والألوان.

3- العلامات غير اللغوية ودلالاتها: هناك سلسلة من العلامات المشكلة لهذا النص:

-القناع:

ويُمثل شيخا مسنّا ذا لحية بيضاء كثّة. يُحيلنا القناع على الطقوس الوثنية، وعلى ذاكرتنا الشعبية، وما تختزنه بشأن احتفالية شخصية "هْرْما" الذي يظهر يوم عيد الأضحى، ويرتدي جلد الأضحية. يحيل القناع أيضا على مرجعيته الكنسية، ويحمل دلالات: الوقار، والموقف الحُبوري من العالم، والرحمة. ولعل هذه الدلالات ستزداد اتضاحا عندما تنضاف إليها دلالات أخرى مرافقة لها. وهذا لا يتأتّى إلا بالانتقال إلى علامات أخرى.

-الثياب: وتتكوّن الثياب أولا من بُرْنُس يُحيل مباشرة على البرانس التي يرتديها الرهبان، ومن يفنون حياتهم في خدمة الكنيسة. ولون برنس بابا نويل أحمر، وثانيا من قبّعة حمراء يتخلّلها الأبيض. ويطغى اللون الأحمر على ثياب بابا نويل. تُرى ما هي دلالة اللونين؟

يُحيل اللون الأحمر على دم المسيح عليه السلام، وهو دم أُريق من فرط الصلب الذي تعرض له المسيح حسب اعتقاد المسيحيين. وللحفاظ على هذه الفكرة الدينية، لزم أن يكون برنس بابا نويل

أحمر. لِذا فالنصارى يشربون النبيذ الأحمر، كرمز للشّغف، ويأكلون الخبز الأبيض اعتقادا منهم أن المسيح عليه السلام قد جمع بينهما. فتشكيل المسيحيين لــ" بابا نُويلْ " باللونين الأحمر والأبيض له ما يفسره في مرجعيتهم العقدية.

–الــحركات: من حركات بابا نويل رفعه يده لتحية الصغار من بعيد، والضحك، والانحناءات أمام الأطفال لبعث الاطمئنان فيهم ولتحيتهم. ويرقص أحيانا بدون موسيقى.

–السلوكات وإيقاع السلوك: من السلوكات التي ينجزها بابا نويل في الزمان والمكان، تَطْويق الأطفال بيديه لعناقهم وتدفئتهم بِبُرْنُسه البابوي، ومصافحة الكبار، ولمس رؤوس الصِّبية. أما بالنسبة لإيقاع هذه السلوكات فإننا نجد الهرولة تارة، والتأنّي تارة أخرى، أو المشي نحو العائلات بشكل غريب لإثارة الضحك وتسلية الناس.

نلاحظ أن تلك الحركات والسلوكات مُتَكلّفَة، وأن زيّ البابوية لا يناسبه، لكن ما عسى بابا نويل أن يفعل؟ إنه الفقر، وهو الذي أملى عليه البرنس والقناع، وأملى عليه ذلك العمل الموسمي. كاد الفقر أن يكون بابا نويل !

يحيل بابا نويل المغربي بحركاته وسلوكاته، وبقناعه وثيابه على شخصية المهرج تارة، والممثّل تارة أخرى. فيتماهى ويتداخل مع شخصية أخرى توجد في ذاكرتنا الشعبية. إنها شخصية (هْرْما) باعتبارها موازية لبابا نويل، فكلاهما يُضحك المارة، ويسرّ الناس، ويهرّج، ويُمثل في احتفالية معينة، ويتقنّع، ويتخفّى، وكلاهما مُتنكّر، ومَدْعاة للسخرية. هذه نقط الالتقاء بين الشخصيتين، ولا تنفي وجود اختلافات بينهما. ومما يتباينان فيه الزمن، والمكان، والدلالة المرجعية.

–على مستوى الزمن: يشتغل بابا نويل بضعة أيام تصل نهاية السنة الميلادية ببداية أخرى، في حين أن (هْرْما) يعمل يوما واحدا فقط.

–على مستوى المكان: بينما يظهر بابا نويل في الشوارع المدن الكبيرة، يرتبط (هْرْما) بالقرى.

–على مستوى الدلالة المرجعية: إن زمن ظهور بابا نويل، وقناعه، وبرنسه قرائن تُؤشّر على أن هذا النص نظام من العلامات ذات المرجعية الكنسية المحددة، في حين أن الصباغة السوداء التي يضعها (هْرْما) على وجهه، والفَرْو الذي يلبسه، والرقص الذي يُؤديه يُحيلنا على الوثنية لدى بعض القبائل المغربية قبل مجيء الإسلام.

4– خصائص النظام السميائي لــ" بابا نويل" :

إذا نظرنا في خصائص النظام السيميوطيقي لهذا النص نجد ما يأتي:

ا-كيفية إنجاز الوظيفة السيميوطيقية: وهي عناصر بصرية.

ب-مجال صلاحية النظام: جانب من شارع محمد الخامس بـــ "جيليز" - مراكش مثلا.

ج-طبيعة علامات النظام وعددها: إن العلاقات بين علامات النظام هي علاقة وِفاق بين القناع والبرنس من جهة، وبين هاتين العلامتين والحركات والسلوك من جهة أخرى. وهكذا نكون بصدد أربع علامات.

د-نوعية توظيف النظام: علاقة التزامن بين اللونين الأحمر والأبيض، وتزامن القناع والبرنس. وقد مثّل " جورج مونان" لهذا النظام بإشارات المرور الضوئية.

ز-الموت في الزمن: إلى جانب بابا نويل نجد آلة التصوير الفوتوغرافي. وفي الصورة تحلّ العلامة محلّ المشار إليه، وتشبهه إلى الحد الذي يُفقدنا الإحساس أن الذي نشاهده ليس الشيء نفسه، ولكنه مجرد علامة تحل محله. فالمصور آلي يقتل الناس في الزمن مُغتالا الابتسامات الطفولية البريئة، والعواطف والأحاسيس في المرجع.

إن مشاهدتك صورتك يا بابا نويل بعد مدة زمنية يعني أنك حقّقت نفسك ثانية، دون أن تنسى أنك في أثناء الخضوع لآلة التصوير تموت في الزمن.

م-البعد الدلالي لـــ "بابا نويل": بحديثنا عن قناع بابا نويل وحركاته وسلوكاته، نكون قد عرضنا للبعد الدلائلي (السيميوطيقي) لهذا النص؛ حيث كانت العلامة ثنائية البنية تشمل الدال والمدلول فقط. ويحمل هذا النص كذلك بعدا دلاليا؛ إذ ينضاف المرجع إلى الدال والمدلول.

5- بين النص والمرجع:

تُرى من هو بابا نويل في المرجع؟ نحن أمام بابا نويل النص وهو ما قاربناه، و بابا نويل الإنسان الموجود داخل البرنس البابوي، والمختفي وراء القناع، ولْننظر في أمره.

لاشك أن بابا نويل يعيش ازدواجية الشخصية اشتغاله. إنه يظهر في غير ثيابه الأصلية، ويرتدي أخرى لا تربطه بها أية صلة حضارية، وبذلك يخضع لما تمليه عليه من سلوكات وحركات ليحصل على بعض الدراهم. إنه شقي، وفقير، وهذه هي مأساوية بابا نويل المغربي. ولعل قراءتنا ل "بابا نويل" كمظهر من مظاهر الهامش ستَرُدّ له بعض الاعتبار.

هوامش

1- نشرت تلك الدراسة مجلة فضاءات مستقبلية، العدد الثاني، السنة الأولى، 1996.

2-نجد إسهامات النحاة والبلاغيين العرب أيضا في مجال نحو النص، وقد سعوا إلى تأسيسه. وأذكر هنا عالم النحو العربي سيبويه؛ حيث كان يقدّم المعنى على الإعراب، ويدعو المتكلم إلى وضع الألفاظ في مواضعها التي رسمها لها النحو. وإن لكل استعمال معناه، وتغيير الاستعمال يؤدي إلى تغيير في النص. ونظّر عبد القاهر الجرجاني في

(دلائل الإعجاز) لنظرية النظم على أساس فكرة محورية هي: توخّي معاني النحو بين الكلم، ومراعاة الترتيب، ودواعي التقديم والتأخير، والحذف، والزيادة، ..

3-ا. ج. غريماس سيميائي فرنسي اهتم بالدلالة، والسيميوطيقا السردية، والتحليل البنيوي للحكاية.

****

صدر حديثا